وارتباطا بعلم السكان، ظهرت الدراسات الديموغرافية في غرب أوربا في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، مستندة إلى مناهج التقدير الكمي في دراسة السكان. وقد مهدت هذه الدراسات المتتالية لنشأة الديموغرافيا التاريخية Historical Demography عندما شرع الديموغرافيون في دراسة دينامية السكان في بعدها التاريخي. إلا أن طبيعة الوثائق والمواضيع فرضت على الباحثين في حقل الديموغرافيا التاريخية، بعد الحرب العالمية الثانية، تعديل أدوات المنهج الديموغرافي، وتبني المقاربة الكيفية في إطار المنهج التاريخي، بديلاً عن النماذج الرياضية المعقدة. واتجهت مدرسة الحوليات نحو دراسة مواضيع ديموغرافية ذات صلة بتاريخ الذهنيات تهم العقليات ، والسلوك الجماعي للمجموعات البشرية، في السياق العام لـ "التاريخ الجديد" الذي خدم مناهج التاريخ الاقتصادي والاجتماعي إلى جانب الديموغرافيا التاريخية .

وازدهرت الديموغرافيا التاريخية أو علم السكان التاريخي كفرع جديد من الديمغرافيا في أوروبا الغربية في بداية الستينيات من القرن العشرين، كامتداد طبيعي للديموغرافيا، خاصة بعد أن تأسست في انكلترا سنة 1964 جماعة كمبردج لتاريخ السكان والبناء الاجتماعي التي اعتمدت على استخراج البيانات عن كل فرد من أفراد الأسرة في مجتمع معيّن، بدءا من ولادته، زواجه، أولادة، وفاته، ثم إجراء عملية ترتيب وفق تسلسل زمني وبصورة محددة لكل نوع من أنواع الأحداث : الزواج، الإنجاب، الوفاة، حيث يتم فرز ذلك حسب الحروف الأبجدية، ومن ثم يتم تجميعها حسب لقب العائلة ثم تكوين فروع وعناقيد بأسماء الأسر، ووضع الأحداث المتعلقة بكل أسرة وفق تسلسل زمني، ثم يصار إلى تحويل هذه المعلومات إلى صور أخرى تسمى صور إعادة تشكل الأسرة.

وقد انحصر انشغال مدرسة الحوليات ليس فقط في معرفة الخطوط العريضة للتطور الديمغرافي لمجموعة بشرية معيّنة، بل أيضاً في رسم تاريخ التطور الصحّي لهذه الساكنة، بما في ذلك الأوبئة والأمراض، ودراسة الأزمات والهجرات المحلية والدولية، وذلك بتطبيق مناهج التحليل الإحصائي والرياضي في دراسة حجم وتركيب الساكنة البشرية وتوزيعها المجالي، وتتبّع تغيّراتها على مستوى الخصوبة والوفيات والزواجية والهجرات.

ويمكن اعتبار مدرسة الحوليات الأكثر استثمارا للديموغرافية التاريخية وتوظيف نتائجها في تفسير التاريخ، وكان رائدها Pierre Goubert الذي فتح للتاريخ الجديد باب الديموغرافيا التاريخية بجرد للسجلات الكنسية من تسجيل تواريخ الولادة وتاريخ الوفيات الخاصة بجميع الأفراد والعائلات في

منطقة محددة طيلة قرن من الزمن وذلك في كتابه: Les Beauvais et les Beauvaisis de 1600 à 1730 : contribution à l'histoire de la France du XVIIe siècle

والجدير بالإشارة أن الديموغرافيا التاريخية تتقاطع مع الديموغرافيا من حيث المنهج والموضوع ، فهي تنقل المنهج الديموغرافي، وتحاول تطبيقه في دراسة التاريخ الديموغرافي لساكنة معيّنة، وموضوعها هو موضوع الديموغرافيا، أي السكان. إلا أن الاختلاف الأساسي بين التخصّصيْن، هو كون الديموغرافيا التاريخية تدرس الخصائص الديموغرافية للسكان في الماضي، ومن هنا تختلف مصادرها وتقنياتها ومناهجها بالضرورة عن مثيلاتها في الدراسة الديمغرافية العادية، مع حضور مناهج التقدير الكمّي في كل منهما.

علم الطوبونيميا Toponymie:

يتألف مصطلح الطوبونيميا من لفظين: طوبو Topos ويعني المكان، و" أنوما" onuma وتعني "اسم" . وبذلك فهي بذلك تعني " اسم المكان "، وهو ما جعل البعض يسمي هذا العلم بعلم الأسماء الجغرافية أو المواقعية (نسبة إلى المواقع) ، وهو العلم الذي يدرس أسماء المواقع الجغرافية وأصولها والبحث في معناها وتفسيرها والوقوف على تغيراتها على مرّ العصور، وتحديد قيمتها التراثية والفكرية لاستخراج المعطيات التاريخية منها، لأن أسماء الأماكن الجغرافية لها معنى تاريخي وحضاري يختزن ذاكرة حية. فكل اسم لمكان جغرافي صاغته عوامل مختلفة عسكرية واجتماعية وسياسية ترسم ثقافة مجتمع من المجتمعات، وتعطي إضاءات حول مجموعة من الامتدادات التاريخية مثل جبل طارق الذي ارتبط بالفتح الإسلامي للأندلس، وجزيرة طريفة نسبة لطريف بن زرعة أحد المساهمين في فتح الأندلس أيضا. وعندما نعثر في بعض المصادر على أسماء أماكن مرتبطة بقبيلة أو أسرة ، فإن لذلك دلالاته التاريخية. مثلا عندما ترد مصطلح "حومة العرب" أو "دور بني هاشم" أو "منازل الأنصار" في الأندلس، فإن هذه الأسماء تحليلنا إلى جماعات بشرية هاجرت أو استقرت بالأندلس. وحملت بعض الدروب أو الحومات في داخل المدن اسم عائلة أو طائفة من قبيل " درب ابن عتيق " بالطالعة بفاس نسبة لبني عتيق العبدريين، و" زقاق الروم" بمدينة القيروان ، أو " درب الفتيان " بمدينة مكناس نسبة إلى الحي الذي كان يسكنه النصارى، وحومة باب اليهود بقرطبة، نسبة إلى الطائفة اليهودية بالأندلس. كما أن أسماء بعض المقابر تحلينا على الجماعات البشرية التي استوطنت منطقة معينة، حتى أن أفرادها توفوا بها فسمّيت باسمهم، مثل "مقبرة قريش" و"مقبرة بني العباس" بقرطبة. وبالمثل، أطلقت أسماء بعض الأبواب

على بعض الشعوب الوافدة على المغرب كباب الفرس بمدينة فاس، كناية عن النشاط التجاري للفرس بهذه المدينة المغربية.

ومن الأسماء الجغرافية ما يرتبط بالطقوس والمعتقدات الدينية والحضارية مثل ركراكة أو إيراكراكن، ومفردها أركراك ويعني في اللغة الأمازيغية (المتبرك به) و" تامزوارت" أي المكان الذي يزار للتبرك. لذلك ينبغي لمن يعالج تاريخ المغرب اعتمادا على المقاربة الطوبونيمية أن يكون ملمّا باللغة الأمازيغية ، حتى يفهم دلالات هذه المصطلحات وصلتها بالتاريخ.

إن اعتماد المؤرخ على الطوبونيميا تسمح له بالوقوف على الذاكرة الثقافية للمجموعات البشرية من خلال أسماء الأماكن التي استوطنتها وحافظت فيها على شخصيتها. بيد أن أهمية الطوبونيميا كعلم مساعد في الدراسات التاريخية، لا يعفي المؤرخ من الاحتراز من بعض المطبّات التي قد يقع فيها، من قبيل التحريف الذي قد يقع في أصل بعض الأسماء، أو التغيّر الذي يقع في ذلك الاسم على مرّ العصور، دون أن يفطن إليه. كما أن الاسم يمكن أن يكون قد انتقل إليها كرمز أو ذكرى لمكان آخر. ويمكن لنفس المكان أن يحمل اسما آخر يعود في أصله إلي مجموعة أخرى بسبب اتساع المجال.

اللغات :

من الضروري أن يكون المؤرخ ملمّا بلغة البلد الذي شكّل البيئة التي جرت فيها أحداث الموضوع الذي يدرسه، فلا يمكن لباحث يزمع دراسة موضوع خاص بتاريخ اليونان القديم أن يكون جاهلا باللغة الإغريقية . كما يستحيل على دارس تاريخ بريطانيا أو الولايات المتحدة أن يكون غير ملم باللغة الإنجليزية أو الفارسية بالنسبة لإيران. وإذا كان الموضوع خاصا بالحماية الفرنسية في المغرب، فعلى دارسه أن يكون متضلعا في اللغة الفرنسية وهكذا دواليك . والترجمات لا تكفي لحصول الباحث على مراده. كما أن معظم هذه الترجمات تحتوي على أخطاء قد تزيغ بالنص الأصلي عن جادة الصواب . وكلما تعددت اللغات القديمة التي يلم بها الباحث ، اتسع أمامه أفق البحث والاستقصاء وكذلك الشأن بالنسبة للغات الأوروبية الحديثة الشائعة الاستعمال كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية ، وإن قصّر في معرفة بعضها يمكنه أن يواظب على دراستها حتى يبلغ المستوى الذي يتيح له فرصة الإفادة منها .

الفيلولوجيا (فقه اللغة)philology

يعتبر فقه اللغة من بين العلوم المساعدة الهامة التي تمكّن المؤرخ من الوقوف على الحقائق التاريخية أو تصحيح بعضها عندما يتعامل مع النصّ أو الوثيقة ، لأن اللغة ليس كائنا جامدا ، بل ينمو ويتطور ويتغير حسب الأحقاب والأزمان ، وحسب تغير الإنسان نفسه وعوامل الحضارات والثقافات . وكلما بعد العصر الذي يعالجه المؤرخ ، ازدادت حاجته لعلم الفيلولوجيا إذ لا بد لفهم النصّ التاريخي الراجع إلى ذلك العصر من معرفة اللغة السائدة آنذاك ،لأن الكلمات والمصطلحات قد تأخذ معاني متعددة أو متناقضة أحيانا حسب كل المراحل التاريخية، لذلك على المؤرخ أن يكون ملمّا بعلم اللسانيات حتى لا يؤول النصّ أو الوثيقة تأويلا مغلوطا فيشوه الحقيقة التاريخية .

علم قراءة الخطوط Paleography:

يعد هذا العلم من الأهمية بمكان بالنسبة للمؤرخ ، ذلك أن الوثائق والمخطوطات منذ أقدم العصور وإلى مرحلة تاريخية متأخرة كتبت بخطوط ذات أشكال مختلفة تظهر كالطلاسم قبل أن يتعلمها الباحث ويتدرب عليها ، إذ أن عدم فهمه لها قد يوقعه في مزالق الخطأ . ففي التاريخ القديم كما في التاريخ الإسلامي الوسيط وحتى جزء من التاريخ الحديث وتاريخ الشرق الأدنى إلى حدود القرن 19 ، وجدت خطوط خاصة بها بعيدة عن الخطوط الواضحة المقروءة التي نجدها في خطوطنا المعاصرة .

وتتعدد أشكال هذه الخطوط العربية حيث نجد الخط الكوفي ، والفارسي والأندلسي والمغربي وخط الطومار الذي كان يكتب به سلاطين مصر علاماتهم في المكاتبات ومناشير الإقطاع، وخط الغبار الذي سمي كذلك لدقته و صعوبة رؤيته وكأنه ذرات الغبار. وبه كتبت بطائق الحمام الزاجل، ويسميه بعضهم قلم الجناح .

وفي الشرق الأدنى العثماني كتبت الوثائق العثمانية بعدة خطوط مثل الخط الديواني وخط القيرمة الذي شاع استعماله في مصر من القرن 11هـ ، وهو معقد جدا ويمكن أن تكتب به معلومات كثيرة في حيّز ضيق . وقد أحدثه العثمانيون لتحرير الشؤون الإدارية والمالية، ولكي يحيطوا محفوظاتهم بالكتمان والسرّية .

وعلى نفس الشاكلة وجدت خطوط أوروبية متنوعة اختلفت من عصر لآخر، وطرأت على كتابتها تغييرات مستمرة على الحروف الصغيرة والكبيرة ونشأت خطوط خاصة في أوقات معينة . كما وجدت اختصارات لبعض الألفاظ ، أو وضعت علامات فوق الحروف للدلالة على كلمة من الكلمات.

وكذلك الشأن بالنسبة لبعض الوثائق التي كتبها سفراء الدول وقناصلها ومبعوثوها إلى حكوماتهم بالأرقام (الشفرة) ، وذلك لإخفاء مضمونها عمّن يحتمل أن تقع في أيديهم من الأعداء ، فينبغي أن يلم المؤرخ بطريقة حلّ رموز هذه الأرقام بواسطة المفتاح الخاص بها.

علم الدبلومات Diplomatic :

هو العلم الذي يعالج طرق قراءة الوثائق والتعرف على أسلوبها وفهم مصطلحاتها والتأكد من صحتها عن طريق معرفة نوع الورق الذي دونت عليه ، والحبر المستخدم في كتاباتها ، ونحو ذلك من وسائل الفحص والتحقق . وقد حدث تقدم كبير في حفظ وثائق التاريخ الحديث والمعاصر وصيانتها ، فلم تعد مشكلة التحقق من صحة الوثيقة قائمة بالنسبة لكثير من الوثائق . كما أصبح من اليسير تصويرها عن طريق ميكروفيلم أو ميكروفيش أو على الصور الرقمية .

ولابد عند دراسة الوثيقة من الوقوف على الأختام التي تمهر بها ، وهي أختام تتنوع حسب المادة والشكل : فهناك أختام الشمع والأختام المعدنية وأختام الذهب . ومن هذه الأختام ما هو مستدير ، ومنها ما هو بيضاوي الشكل ، ومنها ما يأخذ شكل مثلث أو قلب أو صليب ، وذلك حسب اختلاف الدول والأزمان. ولا شك أن معرفة هذه الأختام يفيد الباحث في التأكد من صحة الوثائق التي يستند عليها .

علم الرنوك Heraldry :

يهتم هذا العلم بدراسة الشعارات أو العلامات التي تظهر على الأختام أو الدروع والخوذات، أو على ملابس النساء والجند أو الأعلام ، وقد اختلفت هذه العلامات حسب المجتمعات وحسب الطبقات الاجتماعية والوظائف . ولاشك أن معرفة الباحث بهذه الرنوك تجعله قادرا على إثبات صحة ما يقع تحت يده من الدروع أو الأسلحة والوثائق ، ففي الوثائق مثلا قد يمحى الإمضاء أو التاريخ ، وفي هذه الحالة تساعد العلامة على الختم إن وجدت في التعرف على شيء أو أشياء من الحقيقة .

الفن والموسيقى :

إن الإلمام بنواح من فنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة الخاصة بحقبة تاريخية ، يساعد على فهم تاريخها . وتعكس هذه الفنون مشاهد دقيقة لحضارات تلك الحقبة، وتبيّن كثيرا من عقليات الناس وواقعهم المعاش وتقاليدهم وعاداتهم. وغي هذا السياق تقدم صورة الجوكندا كيف عبّر مصوّرو عصر النهضة الأوروبية عن محاولة الخروج على روح العصور الوسطى، والسعي إلى التجديد والابتكار عن طريق ما توحي به حركة الأعين وسمات الوجوه .

ونفس الشيء يقال عن ضرورة إطّلاع المؤرخ على فنون الموسيقى وما يرتبط بها من فنون مسرح ورقص، لأنها أشكال تعبيرية تكشف عمّا عجزت الكتابات الوصفية عن تبليغه . فمن يرغب في دراسة ناحية من تاريخ العصور الوسطى ، يجدر به أن يكون مطلعا على الألحان الجريحورية الكنسيّة التي تصوّر إيمان الناس وشكواهم مما حلّ بهم من اضطراب الحياة في جزء كبير من قرونها المتتابعة، وابتهالهم أن يرفع عنهم ما نزل بهم من المحن ، و تعبّر مقاطع موسيقى بتهوفن عن ثورته أو حملته على طغيان نابليون عن أوروبا في مطلع القرن 19 ، خاصة سيمفونية الثالثة المسماة بالبطولة التي تعدّ نقدا موسيقيا عارما لطغيان الفرد. كما أن أغاني ناس الغيوان تؤرخ لفترة دقيقة من تاريخ المغرب المعاصر .

علم الفقه :

من المتعارف عليه أن مصادر التاريخ قد تنوعت، فأصبحت النوازل الفقهية من بين المصادر الأساسية لكتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ، الأمر الذي يلزم المؤرخ أن يكون على دراية بعلم الفقه، خاصة ما يتعلق بأحكام الأرض والخراج والميراث ، ونحو ذلك من الأمور التي تهم دراسة النواحي الاقتصادية . وكذلك الحال بالنسبة للنواحي الاجتماعية : فعلى الباحث في التاريخ أن يكون ملمّا بأحكام الزواج والوصايا والهبة والشفعة وغير ذلك من القضايا التي تطرحها كتب النوازل . كما أن على المؤرخ أن يكون مستوعبا للمصطلحات الفقهية حتى لا يهوى في مزالق الخطأ .

التاريخ وعلم الاجتماع:

((إن التاريخ هو علم الاجتماع الماضي وعلم الاجتماع هو تاريخ الحاضر)): تلك مقولة تبناها المفكر جورج هورد ، وهي تنهض دليلا على الترابط العضوي بين علم الاجتماع علم التاريخ . وتتجلى هذه العلائقية بينهما إذا علمنا أن علم الاجتماع هو علم إنساني اجتماعي في نفس الوقت، حتى أن ابن

خلدون جمع بين صفة المؤرخ وعالم الاجتماع ، فأغنى علم التاريخ بنظرياته الاجتماعية. - وإذا كان علم الاجتماع وفق ما يعرفه به "ماكس فيبر" بأنه ((العلم الذي يحاول الوصول إلى فهم تفسيري للفعل الاجتماعي من أجل التوصل إلى تفسير سببي لمجراه و لنتائجه)) ، فإن نفس التعريف ينطبق على التاريخ ، مع فرق واحد وهو أن مجال المؤرخ يتم في الماضي ، بينما ينجز عالم الاجتماع مهمته في الحاضر. فعلم التاريخ من هذا المنطلق علم اجتماعي باعتباره محاولة منظمة لمعرفة وتحقيق الحوادث الماضية عن طريق ربط كل واحدة منها بالأخرى عن طريق التشبيك للكشف عن مختلف تأثيراتها على تشكيل ومسيرة الحضارة الإنسانية، ما يجعل العلمين يشتركان معا في نفس المنطقة البحثية وهي " المجتمع ".

وتأسيسا على ذلك ، فإن المؤرخ مثل عالم الاجتماع يهتم بالفهم الشمولي للعمليات الاجتماعية كظواهر متكررة ينتجها المجتمع ، ويركّز على تحليل القوى الاجتماعية التي لعبت دورا بارزا في تشكيل الواقع الاجتماعي في حقبة زمنية معينة. كما يهتم بالبحث عن النتائج المتولدة عن ظهور بعض الظواهر أو المشاكل الاجتماعية ، ويقف على العلاقات العملية التي تربط الماضي بالحاضر وتفسير كيفية انعكاساتها على المستقبل. فالمؤرخ مثله مثل عالم الاجتماع ، يهتم بالماضي لا لوصف أحداثه فحسب، بل يستثمره ليفسّر به الحاضر، ويتنبأ من خلاله بأحداث المستقبل.

وعلى غرار عالم الاجتماع، يجتهد المؤرخ في الكشف عن النظريات التي تفسر التطور التاريخي مثل ما قام به ابن خلدون في العصر الوسيط، وكارل ماركس وفيكو في العصر الحديث ، بهدف الكشف عن ميكانيزمات الصراع الاجتماعي، وما ينتج عن ذلك من آثار اجتماعية و اقتصادية و سياسية شكلت مجرى التاريخ الإنساني. كما يسعى المؤرخ إلى استشفاف نظريات اجتماعية تفسر ثقافات وأشكال الحضارات الإنسانية مثل " أرلوند توينبي" في قراءته للحضارات والمجتمعات الإنسانية.

وإذا استقصينا نقاط التقاطع بين كل من علمي الاجتماع و التاريخ، يمكن حصرها فيما يلي:

- يمكن اعتبار علم الاجتماع من العلوم الوليدة التي نشأت من علم التاريخ، وأحد قضاياه المركزية.

- لا يزال منهج البحث التاريخي يمارس تأثيرا واضحا على علم الاجتماع. وتبرز أشكال توظيف المنهج التاريخي لدى علماء الاجتماع عند دراستهم للثقافة، لاسيما ما تعلق بنشأة الثقافة و تاريخها، وعند بحثهم عن كيفية انتشار الثقافات و حواراتها عبر التاريخ.

- يسعى كل من المؤرخ وعالم الاجتماع إلى اكتشاف الأسباب الكامنة وراء تتابع الأحداث أو وقوعها بالطريقة التي تمت بها، والبحث عن العلاقات التبادلية بين تلك الوقائع، و ذلك بغرض التعرف على أسباب تتابعها بالشكل الذي وقعت به ، وقراءة النتائج المتمخضة عنها.

- لم يعد المؤرخون أثناء عرضهم للوقائع التاريخية يهتمون بوضع البيانات في شكل وصفي بعيد عن التجريد، أو يلتزمون بوصف الأحداث كما حدثت في الواقع، بل أصبحوا يميلون إلى تجريد الواقع الملموس ثم تصنيفه تمهيدا للوصول إلى تعميمات.

- تغيّرت طريقة معالجة المؤرخ لدراسة مجتمع من المجتمعات، إذ لم يعد اهتمامه ينصبّ على المجتمع الذي يشكّل موضوع دراسته، بل صار على شاكلة علماء الاجتماع يوسع دائرة اهتمامه في سياق دراسات مقارنة تشمل رؤيته من خلال مقارنته بتطور عدد من المجتمعات ضمن ما يعرف حاليا بالمنظور العالمي للتاريخ.

- إذا كان علم الاجتماع يدرس الحاضر، فإن المؤرخ بدوره لا يقتصر على دراسة المجتمعات في الماضي، بل حتى في الحاضر ضمن ما بات يعرف بالتاريخ الراهن أو التاريخ الآني أو التاريخ اللحظي L'histoire immédiate.

هذا التقاطع الحاصل بين علم الاجتماع والتاريخ أسفر عن ظهور ما يعرف بعلم الاجتماع التاريخي الذي هو النشاط العلمي المبذول لاكتشاف الانتظامات و المبادئ العامة التي تحكم حركات المجتمعات أو الثقافات أو الحضارات الكاملة. ويكمن هدف علم الاجتماع التاريخي في الكشف عن القوانين التي تحكم أو تسيّر وقائع وأحداث التاريخ أو الاجتماع الإنساني.

بيد أن الحدود بين التاريخ وعلم الاجتماع قد تختلط على مستوى الواقع، ذلك أن المؤرخ يسعى في الغالب الأعم إلى اكتشاف الأنماط المتكررة في الواقع الاجتماعي. ويحصل على ذلك حينما تؤدي دراسته للتطورات الملموسة إلى محاولة فهم هذه التطورات فهماً سببياً. فهناك أعمال تاريخية تغزو مجال علم الاجتماع غزواً سافراً كمؤلف آرنولد توينبى Toynbee المسمى " دراسة التاريخ " A Study of

History (1934)، وفي نفس الوقت خرجت أعمال سوسيولوجية أسهمت إسهاماً عظيماً في فهم الصيغ الماضية للاعتماد الإنساني المتبادل، منها مؤلف ماكس فيبر Weber " الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية " (1920) The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism ومؤلف بيتريم سوروكين Sorokin المعنون " الديناميات الاجتماعية والثقافية " (41-1937) Social and Cultural Dynamics . وتظهر هذه الأعمال بوضوح اجتماع التفرد والتغيّر فى الظاهرة الاجتماعية. وإذن فهناك نوع من التداخل والتشابك بين التاريخ وعلم الاجتماع، وهو تداخل مفيد ومثمر بالنسبة لكل منهما.

الأدب والتاريخ:

يعد الأدب مرآة لحياة الشعوب وعطاء صادقا لواقعها المعاش، وانعكاسا أمينا لأفكارها وأحاسيسها، ومشاعرها ، لا بل إنه يرسم لوحة صادقة عن حياة المدن والأرياف والنظم السائدة . لذلك ينبغي للباحث في التاريخ المصري القديم أن يطلع على الأدب المصري القديم لفهم نواحي مختلفة في الحياة المصرية القديمة . فالمصريون القدماء كتبوا عن الآلهة القديمة ، وتحدثوا عن العاطفة والحب والموت . كما كتبوا عن الأبطال ، وعن الأدب التعليمي، وتركوا آثارا مهمة في فن الحكم والسياسة والفكر، تساعد المؤرخ في التأريخ لتلك الفترة . كما أن الباحث في التاريخ الإيطالي في القرن 14م لا يمكن أن يستغني عن أفكار دانتي الأدبية ، لأنها تعكس النواحي المختلفة في الحياة الإيطالية في أواخر العصور الوسطى وتمهد لعصر النهضة. والأدب بصفة عامة يوسع عقل المؤرخ، ويصقل نفسه ويجعله قادرا على الفهم والاستيعاب . ولا بد للباحث في التاريخ أن يتذوق الشعر كي يفهم ملكة الخلق والابتكار، ويلزمه قراءة شيء من القصص الأدبي لكي يتعلم فن عرض الموضوع ، وإبراز الحوادث المهمة، وبحث الشخصيات الأساسية و الثانوية ووضع التفاصيل والجزئيات عن المكان الملائم وإحكام الإطار العام للموضوع الذي يدرسه . ويحسن بدارس التاريخ أن يلم بشيء من مذاهب النقد الأدبي لأنه يقدم للمؤرخ ذخيرة قيمة تعينه في دراسته التاريخية.

وفي بعض الفترات التاريخية العربية يجد المؤرخ نفسه مضطرا للاعتماد اعتمادا كليا على الشعر كدراسة حالة العرب قبل الإسلام . ويذهب بعض الباحثين إلى نتيجة مؤداها أن ذكر الشاعر العربي لأسماء الأماكن أو الأطلال في مطلع قصيدته ليس المقصود منه البكاء على الأطلال أو استدعاء

الذكرى فحسب ، وإنما هو يرسم خريطة طبوغرافية لهذه المواقع لهدف تعليمي ووطني إن جاز هذا التعبير.

وتؤدي الروايات الأدبية وظيفة مساعدة للمؤرخ في استجلاء معالم فترة تاريخية بما تكتنزه من معلومات تعبر عنها شخصيات الرواية، وبما تنطق به من قضايا مسكوت عنها في كتب التاريخ. ونسوق في هذا الصدد رواية " الخبز الحافي " لمحمد شكري التي هي نوع من أدب المهمشين أو ما يعرف بالإسبانية ب Pecarisca التي هي نوع أدبي يعبّر عن حياة المهمشين وعن الثقافة الشعبية في المجتمع المغربي في حقبة التاريخ الراهن. وما يقال عن الرواية ينسحب على المسرح أيضا.

الأنثروبولوجيا:

يتكون مصطلح " أنثروبولوجيا " من مقطعين يونانيين هما: أنثروبوس(Anthvo pos) ، وتعني الإنسان ولوغوس(Logos) ، ومعناها الكلمة أو الموضوع أو الدراسة، وبهذا يكون معنى الأنثروبولوجيا هو دراسة الإنسان، أو علم الإنسان ، لذلك يسميها بعض الباحثين بعلم الإناسة؛ أي" علم الناس " الذي يدرس الإنسان ككائن ينتمي إلى العالم الحيواني ، ولكنه الوحيد من الأنواع الحيوانية الذي يبدع الثقافة . وعموما فإن الأنثروبولوجيا تهتم بدراسة عادات البشر وتقاليدهم في ماضيهم وحاضرهم ، سعيا وراء فهم هذه الكيانات الهائلة والمعقدة من الثقافات عبر التاريخ، إنها بكلمات أخرى: تاريخ للعادات: العادات الفيزيولوجية والحركية ، والغذائية والعاطفية والعادات الذهنية، فضلا عن الخصائص الفيزيولوجية لمختلف الشعوب وتطورها.

ومع حداثة الأنثروبولوجيا كحقل معرفي جديد، يمكن اعتبارها من أقدم العلوم ، إذ بدأت مع أقدم تأمّلات الإنسان حول تلكَ الموضوعات. فالمؤرّخ الإغريقي (هيرودوتس) يعدّ " أب الانثروبولوجيا" وفي ذات الوقت أبو التاريخ، وحسبنا أنه وصفَ لنا بكثير من التفاصيل التكوين الجسمي لأقوام قديمة مثل قدماءَ المصريين وغيرهم من الشعوب القديمة، وصور أخلاقهم وعاداتهم . ومن جهته، كتب المؤرخ الروماني (تاكيتس) دراستهُ المشهورة عن القبائل الجرمانية.

وبما أن الأنثروبولوجيا هي دراسة للإنسان في أبعاده المختلفة، البيوفيزيائية والاجتماعية والثقافية، فهي علم شامل يضمّ ميادين ومجالات متباينة ومختلفة بعضها عن بعض من قبيل علم التشريح، وتاريخ تطور الجنس البشري، والجماعات العرقية، وعلوم دراسة النظم الاجتماعية من سياسية واقتصادية وقرابية،

ودينية وقانونية، وعادات التغذية وطريقة اللباس وكيفية السكن ، وطرق الاحتفالات في المواسم وغيرها. وتندرج هذه المجالات في مشروع ما يعرف بالإنسان المتوحش والإنسان الآهل الذي اهتم به كل من "جاك لوجوف" و François Furet اللذان اعتمدا في دراستهما على أبحاث " كلود ليفي شتراوس" . ويعتبر كتاب "الملوك صناع المعجزات " ل"مارك بلوخ" كتابا نموذجيا للأنتروبولوجيا التاريخية.

أما عن العلاقة البينية بين التاريخ وعلم الأنثروبولوجيا، فهذا أمر لا يرقى إليه الشك، فالأنثربولوجيون اعتمدوا التاريخ كعلم لفهم دراساتهم للمجتمعات التي اكتشفوها ، وتحليل المعلومات التي حصلوا عليها. ويلاحظ أن الكتابات الأنثروبولوجية لم تنفصل عن تاريخ الاستعمار الأوروبي للشعوب التي كان يعتبرها " بدائية "، وهي حقيقة وقف عندها شيخ الدراسات الأنثروبولوجية " بريتشارد ". فمنذ القرن 16م كان التجار والبحارة والبعثات التبشيرية الأوروبية تقوم بإمداد الدول الغربية الكبرى بالمعلومات عن تلك الشعوب التي كان محط أنظارها ، مما جعل تلك المعلومات مادة تاريخية منتقاة بعناية، وهذا ما أدى إلى تداخل التاريخ والأنثروبولوجيا إلى حد يصبح الأنثروبولوجي عاجزا عن الاستغناء عن تاريخ الشعب الذي زاره وكتب عنه. كما أن المؤرخ لا يستطيع الاستغناء عن المعلومات التي يقدمها له الأنثروبولوجي لفهم الحقائق التاريخية، مما يجعل التقاطع بين العلمين واقعا يعكسه ظهور ما يعرف بالأنثروبولوجيا التاريخية.

وتُبنى الأنثروبولوجيا وتتحرك على القواعد المعرفية التي تقوم عليها العلوم الاجتماعية والبيولوجية، خاصة ما يتعلق بتاريخ الجسد . وفي هذا السياق جاءت الدراسة التي نشرها " إيمانويل لادوري" بمعية مجموعة من الباحثين اعتمادا على ملفات المجنّدين الفرنسيين ، والتي سعت إلى رصد متوسط قامات الرجال في فرنسا خلال القرن 19.

وتهتم الأنثروبولوجيا أيضا اهتماما واسعا، بالسلوكات الجنسية وممارستها بطرق غير شرعية خارج مؤسسة العائلة. وتسمح المصادر الديموغرافية وسجلات القضاء بإلقاء الضوء على هذا الموضوع من خلال تتبع منحنى الولادات غير الشرعية، وهو ما قام به Jacques Dupeauw في مقاله : « Amour illégitime et société à Nantes au XVIII e siècle » ونشره في مجلة الحوليات سنة 1972، دون أن ننسى المساهمة الكبيرة ل " ميشيل فوكو" في هذا الجانب. أما بالنسبة للتاريخ الإسلامي، فلا نعثر على دراسات في الموضوع بسبب ندرة النصوص وتبعثرها في النوازل الفقهية، وأحيانا في الدواوين الشعرية وكتب الطبقات، ولكنها غير كافية.

ويستلزم فَهم طبيعة المجتمعات التي يسميها الأنثربولوجيون بدائية ، الإقامة فيها لأطول فترة ممكنة، بهدف الإحاطة بهذه المجتمعات من كل الجوانب، وتقديمها في شكل كتاب أو تقرير، ومن هنا أصبحت الأنثروبولوجيا الثقافية أو الاجتماعية المعاصرة تعتمد اليوم على ما يسمى بالبحث الحقلي أو المعاينة الميدانية للنموذج المختار للدراسة؛ حيث انتهى عهد الأنثروبولوجيا النظرية ، وأصبحت الدراسة الميدانية هي الحقل التجريبي لعلم الأنثروبولوجيا، تمامًا كبقية العلوم الأخرى التي تعتمد على التجارب المخبرية.

علم النفس والتاريخ :

يجمع الباحثون على أن علم النفس Psychology هو العلم الذي يعنى بسلوك الفرد في علاقته بالآخرين، وكيفية تأثيره في المجتمع من خلال السلوكات التقليدية أو المتوقعة من الناس، سواء كان هذا السلوك ظاهرا كالأفعال التي يقوم بها الفرد، أو سلوكا باطنا كالتفكير والتخّيل والتذكر.

وقد ركّز بعض المؤرخين على العواطف البشرية من حبّ وكره ، ويقظة وحلم ، في تسيير أحداث التاريخ ، وركّز باحثون آخرون على الزعماء أو القادة الذين يدفعون الجماهير للحركة بإثارة عواطفهم . وقد وفق الباحثون أحيانا في تحليلاتهم هذه ، وفشلوا فشلا ذريعا في أحيان أخرى . لكن يبدو على العموم أن التقارب بين علم النفس وتطبيقاته في حقل الدراسات التاريخية لا يزال تقاربا باردا على حد تعبير " جاك لوجوف" بسبب تحوّل علم النفس الجماعي إلى مفهوم الذهنيات.

التاريخ وعلم السيميولوجيا:

علم السيمولوجيا Sémiologie هو العلم الذي يهتم بدراسة أنظمة العلامات والرموز والدلالات المتداولة في ثقافة مجتمع من المجتمعات، حتى أن بعضهم أطلقوا عليه علم الدلالة أو علم العلامات أو علم الإشارات . بيد أن العلامات والرموز والإشارات لا تقتصر على العلامات الخاصة باللغة ، بل تشمل أيضا الأصوات والألوان والأشكال وغيرها من التعبيرات التي تعكس أنظمة التواصل.

وقد كان الفيلسوف الألماني Ernest Cassia من أوائل الذين نبهوا إلى علاقة السيميولوجيا بالتاريخ حين أكد أن اللغة ليست هي الوحيدة التي تحتكر مجال التواصل كما هو شائع ، وإنما تتقاسمه مع مجموعة من الأنساق كالأسطورة والدين والفن والتاريخ ، لأن العالم في نظره مزيج من الأشكال الرمزية Les forms symboliques.

ويرجع انفتاح التاريخ على السيميولوجيا لسببين أساسيين : أولهما أن الإنسان هو محور الدراسة التاريخية ، والإنسان بطبعه حيوان رامز . وثانيهما يتمثل فيما تحويه الأحداث التاريخية من علامات ورموز ؛ وحسبنا أن المؤرخين المعاصرين لم يكتفوا بالانفتاح على الأدب والفقه والأنثروبولوجيا وعلم النفس وغيرها من العلوم، بل طرح أمامهم تحدي آخر يتجسد في تأويل النصوص التاريخية المفعمة بالرموز والمعاني المضمرة كما يتجلى ذلك في الخطاب السياسي الذي تبنته المعارضة في التاريخ الإسلامي ، وهو خطاب يقوم على الترميز والتعبير بصيغة غير مباشرة ، وبكلام ينسب إلى الموتى ، أو يتم التعبير عنه بالأحلام ، أو بواسطة الإيحاءات والإشارات الغامضة ، أو يموّه بلغة لا تحدّد الضمير المتكلم ، أو يبنى للمجهول . كما استعمل بعض المؤرخين القدامى صيغة المجاز والاستعارة ، أو أوردوا كلاما على لسان الحيوانات لتمرير مواقفهم بالإيحاء والرمز، مما يفرض على المؤرخ تفكيك الرموز وتأويل النصوص حسبما يوحي به المنطق التاريخي، ويتضافر جهده مع الباحثين في السيميائيات لاستخراج العناصر الخفية والمضمرة في الأحداث التاريخية.